الفصل 4

المناهج الأسلوبية والإستراتيجية في اللاعنف

هاورد كلارك Howard Clark[1]

كتب جوناثان شيل: «العنف هو الطريقة التي يمكن لقلة شرسة أن تخضع بها كثرة خانعة، اللاعنف هو وسيلة يمكن للكثرة النشطة أن تتغلب فيها على الأقلية الشرسة» (شيل 2003، ص. 23) (Schell 2003, p. 23)، يعبر شيل بشكل جيد عن أحد الادعاءات المركزية لدعاة اللاعنف، مع أن هذا هو فقط جزء من القصة، ومجمل حجتي وكتابتي ليس بصفتي دارسًا لأعمال اللاعنف، بل بصفتي ناشطًا وداعية أيضًا، هي أن العنف البرغماتي لا يتعلق فقط (بالجماهير) أو السير خلف القادة والإستراتيجيات التي يتخذونها، بل هي عن الناس ذوي الدوافع القوية الذين يقومون من تلقاء أنفسهم بمبادرات ملموسة، ويصنعون معانيهم الخاصة من بيئتهم، إضافة إلى ذلك فمهما بلغت قوة عدم التعاون في كبح أو تقويض الخصم، لا بد من أن يكون هناك تأكيد مساوٍ له على عملية التمكين الشعبي؛ أي العمل سوية وتوليد (قوة تعاونية)، وهذا يشمل قوة الاتصالات بأشكالها المختلفة، بما في ذلك قوة المعلومات المضادة لمواجهة (الحقائق) الرسمية، والقدرة على التنظيم، والانتشار، وإقامة التحالفات مع المجموعات والناس، والقدرة على التعطيل والتحدي، والقدرة على القيام بالأشياء بطريقة مختلفة، وطرح البديل لنظام قمع قائم، وتطوير مراكز جديدة للسلطة في المجتمع.

يركز هذا الفصل على دور أعمال اللاعنف في أوضاع يبدو فيها (النجاح) بعيدًا، لكن الناشطين البرغماتيين يسألون: (ما الذي يمكننا فعله؟)، بدءًا من نوع القمع الذي يمارس في ظل الديكتاتورية العسكرية، فسوف يولي الفصل انتباهًا خاصًّا لظهور جيوب المقاومة في ظل ديكتاتورية التشيلي العسكرية، أما الحالة الثانية التي ستتم مناقشتها فهي كوسوفو

عقد التسعينيَّات، وهو وضع انتهى بحرب وتدخل عسكري دولي، ومن النقاط المهمة لدراسة أعمال اللاعنف، حقيقة أن الأوضاع المتاحة للقيام بنضال غير عنيف لم تكن واعدة قط، ولاسيَّما أن النظام القمعي لم يكن يعتمد على الشعب المضطهد، وبالتالي فإن أقوى الأسلحة في ترسانة اللاعنف - الانسحاب الجماعي من التعاون- كان له تأثير بسيط، وهو وضع نشهده حاليًّا في فلسطين، وفي بابوا، والتبت، والصحراء الغربية (انظر الفصل الخامس لمعرفة المزيد عن قضية الصحراء الغربية).

يستخدم تعبير (البرغماتية) في مناقشة اللاعنف عادة للإشارة إلى استخدام أساليب اللاعنف على أساس فاعليتها وليس بدافع فلسفة اللاعنف، إلا أن هذا الفصل يطبق تعبير (البرغماتية) على طراز النشاط، وحين حث المنظم الاجتماعي الأمريكي شاؤول ألنسكي على البرغماتية كانت النقطة التي عناها هي (افعل كل ما تستطيع بما لديك). (ألنسكي 1971، ص138) (Alinsky 1971, p. 138).

البرغماتية والمبدأ

معظم أمثلة أعمال اللاعنف في النضال الاجتماعي التي حدثت قبل غاندي- مثل إضرابات الحركات العمالية، والمقاطعة، أو أي نوع من أعمال العصيان التخريبية التي شوهدت في قضية منح المرأة حق التصويت- كانت (برغماتية) في الأصل، وكان كل شيء في سياقها يعد طريقة فعالة لتحدي الممسكين بالسلطة ودفع القضية للأمام بطريقة جماعية، من دون اللجوء إلى العنف بشكل عام، مع أن ذلك نادرًا ما كان مسألة مبدأ.

الحركات التي تبنَّت إستراتيجية اللاعنف من منطلق سلمي يرفض استخدام السلاح في الظروف كافة قليلة نسبيًّا، وكانت وجهات نظرها هي إمَّا أنه ليس هناك في الواقع خيار مسلح أو أن اللاعنف يستحق المحاولة، ربما ارتقى هذا إلى مستوى التزام إستراتيجي، وربما أصبح جزءًا من أخلاقيات الحركة، غاندي ومارتن لوثر كينج الابن، الشخصيتان اللتان ارتبط اسماهما باللاعنف المبدئي، يبدو أنهما تحولا إلى أعمال اللاعنف لأسباب

برغماتية؛ إذ خاض غاندي حملات ضد التمييز العنصري في جنوب أفريقا، وكينج حين دُفِعَ به إلى المقدمة إبان قضية مقاطعة الحافلات في مونتجمري عام 1956، فالتزامهما الفلسفي وفهمهما المبدئي لطريقة شن صراع غير عنيف نَمَا من خلال التجربة والتفكير.

وتتضمن الأسباب البرغماتية الشائعة التي تدفع الحركات إلى تبني سياسة اللاعنف ما يلي:

1. وصلت الطرق الأخرى إلى طريق مسدود، سواء كشفت الطرق القانونية عن عجز مؤسسي لدى المجموعة المتظلمة أو أثبت أن الكفاح المسلح غير فعال.
2. غالبًا ما يتسبب العنف في إثارة رد فعل انتقامي قاسٍ.
3. طرق اللاعنف أسهل ولوجًا وتشجع الجماهير على المشاركة، بخلاف القنوات التقليدية التي تفضل المجموعات المتميزة أو الكفاح المسلح، والتي تقتصر على الذين يملكون الأسلحة أو الوسائل المادية.
4. اللاعنف يتغلب على حاجز الخوف بتقديم تشكيلة من الوسائل، من (البطولية – عالية المخاطر) إلى (غير البطولية – متدنية المخاطر).
5. ينظر إلى وسائل اللاعنف على أنها أكثر ديموقراطية ومشروعية، وتميل بالتالي لأن تكون مقبولة أكثر من قبل حلفاء محتملين داخل المجتمع وعلى المستوى الدولي.
6. أعمال اللاعنف نجحت في أماكن أخرى.
7. الوسائل غير العنيفة تتفق أكثر مع الغايات المرجوة، مثل تحقيق الديموقراطية أو احترام حقوق الإنسان.
8. اللاعنف تتردد أصداؤه مع الأخلاقيات في السياق الثقافي، مثل مفهوم الصمود في الثقافة الفلسطينية.

لقد توصل غاندي إلى رؤية أن اللاعنف فلسفة حياة، مطالبًا بممارسين أصحاب مبادئ من مستوى رفيع، إلا أنه مع إدراكه بأن معظم أعضاء حزب المؤتمر الوطني الهندي هم من الأشخاص الأقل تمسكًا بالمبادئ، فقد أقنع حركته الجماهيرية بتبني نموذج أقل تطلبًا وأكثر

برغماتية لأن اللاعنف سياسة أو وسيلة، وجادل قائلًا: «كون اللاعنف سياسة يعني أن في الإمكان التخلي عنه بعد تقديم إشعار مناسب، إذا ثبت أنه سياسة غير ناجحة أو غير فعالة/ لكن... أثناء متابعة سياسة معينة، ينبغي على المرء متابعتها بكل قلبه» (غاندي 1999، المجلد 26، ص 248) (Gandhi 1999, Vol. 26, p. 248)، ويجب أن تكون (من الصادقين). (المرجع السابق، ص 293) (ibid., p. 293)، وعلى المشاركين أن يتبعوا قانون الانضباط (ثمة عينة من هذا القانون مُضمَّنة في بندورانت 1965، ص 38– 39) Bondurant 1965, pp. 38–9.

بعد ذلك، نمت مدرسة تدافع عن اللاعنف (البرغماتي)، فقد أسست على أعمال جين شارب واستنسخها أكرمان وكروجلر (1994) وهيلفي (2004) Kruegler (1994) & Helvey (2004)، وكان شارب يشير في بعض الأحيان إلى أعمال اللاعنف بوصفها (وسيلة قتال) (شارب 1990، ص 37) (Sharp 1990b, p. 37)، وكان يقول مع المهارة والالتزام الثابت: «يمكن لنظام أسلحة اللاعنف أن يقلب عنف الخصم وقمعه ضد موقفه القوي» (شارب 1973، ص 112) (Sharp 1973, p. 112)، وأهم كتب شارب هو المجلد المكون من ثلاثة أجزاء وعنوانه (سياسات أعمال اللاعنف) (1973)؛ حيث يدور الكتاب الأول حول حجته بأن في الإمكان هزيمة قوى الاستبداد بعدم التعاون الشعبي، ويصف الكتاب الثاني (198) طريقة تستعرض أعمال اللاعنف جمعت تحت عناوين (الاعتراض والإقناع)، و(عدم التعاون؛ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي)، و(التدخل اللاعنيف) ويقصد به أعمال تشويش لتحدي الوضع القائم أو أعمال البناء لتقديم بديل، أما الكتاب الثالث الأطول (أساليب أعمال اللاعنف) فيتناول تشكيلة من المسائل الإستراتيجية التي تقتصر مناقشة شارب صراحة على سياقات العمل الجماهيري، الذي يشمل عادة عدم التعاون، حيث للحركات المتطورة هيكل قيادي يمكن تمييزه. وقد بنى أكرمان وكروجلر (1994) Ackerman & Kruegler (1994) على ذلك باقتراح (12) مبدءًا من الكفاح الإستراتيجي اللاعنيف، والتي بسَّطها أكرمان لاحقًا في ثلاث صفات أساسية لتحقيق الفاعلية (التخطيط، والوحدة، والانضباط اللاعنيف)، ثم أضاف عقيد الجيش الأمريكي هيلفي منظورًا عسكريًّا لصنع قرار القتال والتوجيه لوضع تقييم إستراتيجي مفصل للقوى المحتملة والنقاط الضعيفة للمتنازعين.

ولسوء الحظ، فإن تلك الأفكار لا تقدم الكثير للجماعات حين لا يكون ثمة حركة تشكلت، أو أن تكون المجموعة ما زالت خارج التيار الرئيس للحركة، أو أن تكون واقعة تحت ضغط، أو راكدة، فقدت الأمل والاتجاه في بيئة قمعية، وقد يميل التنظيم العملي للبدء في ابتكار وسائل للاتصال واللقاءات تكون معتمدة على منبع الحركة- (دوافعها، وقيمها، وهويتها الجمعية) وأن تنطلق من هناك.

يطرح مارشال جانز Marshall Ganz الحوافز بوصفها المكون الأهم في ما يطلق عليه (القدرة الإستراتيجية)، قائلًا بأن القدرة الإستراتيجية بحد ذاتها هي المكون الأكثر أهمية في فاعلية الحركة (انظر الفصل الثامن)، ويُعرِّف جانز هذه القدرة على أنها تستمد من الحافز مقرونًا بقدرة الحركة على التعلم أثناء مسيرتها ودخولها في (المعارف البارزة)، بما في ذلك فهم قاعدة دعمها ونقاط تأثيرها الممكنة والمحتملة، وبالعودة إلى (برغماتية) الناشط التي أشار إليها ألنسكي الذي انطلق من نقطة (افعل كل ما تستطيع بما لديك)، يطرح جانز الإستراتيجية على أنها (كيف نحول ما لدينا إلى ما نحتاجه للحصول على ما نريد) (جانز 2009، ص. 8) (Ganz 2009, p. 8)، وبعكس النهج الإستراتيجي الخطي نسبيًّا لشارب، يجادل كل من أكرمان، وهيلفي، وجانز بأن (الإستراتيجية - فعل وهي شيء تفعله وليست شيئًا تملكه- عملية تفاعلية مستمرة من التجريب، والتعلم، والتكيف؛ لأن المجهول - كما يوحي اسمه- عامل كبير في الحركة الاجتماعية، ونحن غالبًا لا نستطيع الحصول على المعلومات التي نحتاجها للقيام بخيارات إستراتيجية جيدة قبل أن نبدأ العمل (المرجع السابق، ص 10).

الصندوق 1.4 خصوصية السياق

مجموعة الجنجر (الزنجبيل) البولندية التي ظهرت في منصف ثمانينيَّات القرن العشرين خلال المدة التي فقدت فيها حركة تضامن (اتحاد نقابات العمال البولندي) اتجاهها، كما حدث لحركة (بديل البرتقال) (انظر الفصل الثامن) و(الحرية والسلام) التي كانت تستخدم غالبًا تعبير (كونكريتي)، والتي تترجم إلى متماسك أو عملي أو برغماتي، لولا دلالة (افتقارها إلى المبدأ) في الاستخدام الدارج لكلمة (برغماتية)، يقول

بدرياك كيني (2002) Padraic Kenney (2002) إنهم أحيوا كفاحًا راكدًا مبينين أن النشاط البرغماتي في الكفاح اللاعنيف لا يعني اتباع نموذج تحدده لجنة مركزية، بل هو تحفيز للتجربة في بيئة المرء الخاصة.

البرغماتية: تحت الرادار

قبل ظهور أي حركة عامة، هناك مدة - بوجه خاص في المجتمعات المضطهدة- من التململ غير المنظم نسبيًّا، وقد كتب سكوت (1990) Scott (1990) عن (النصوص الخفية) التي (ترفض) المجموعات الخاضعة من خلالها الروايات الرسمية السائدة، مشيرًا في مناسبات عديدة إلى فكر فاكسلاف هافل الذي شدد - بوصفه منشقًّا في تشيكوسلوفاكيا الشيوعية- على أهمية وجود (مجال مستتر) ذي (هياكل موازية) حيث يمكن للناس ألا يعيشوا الكذبة التي يفرضها الاستبداد الشيوعي، ومن الواضح أن لدى أمثال هذا النهج الكثير مما يمكن تقديمه لدراسة اللاعنف المبدئي حول الأوضاع التي يمكن للمقاومة أن تنبثق عنها، وهو مجال لاحظ شارب في العام 1973 أنه لم يحظَ بما يستحق من البحث، إلا أنه يمكن أن يكون مهمًّا بشكل خاص (للأوضاع السياسية التي تجعل من الصعب تنظيم أعمال اللاعنف على نطاق واسع) (1973، ص 462).

وتميل بعض أشكال المقاومة اليومية التي أدرجها سكوت لأن تكون ذات نزعة فردية - مثل التعدي على ممتلكات الآخرين أو أفكارهم- يمكن النظر إليها على أنها تتحدى أنماط الهيمنة بدلًا من التعامل معها، إلا أن هناك هدفًا واضحًا للأنشطة اليومية التي تسعى عن وعي إلى بناء إحساس بالهدف المشترك والدعم المتبادل، ويمكن مشاهدة ذلك في عمل الباحث في الحركة الاجتماعية هانك جونستون، الذي حاول وضع نموذج لتطور المقاومة في ظل الأنظمة السلطوية، في حالات مستخلصة بقدر كبير من دول البلطيق التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي وإسبانيا فرانكو (جونستون 2011، ص 97- 135) (Johnston 2011, pp. 97–135)، والذي يقول بأن هناك تدرُّجًا في صيغ الاحتجاج، فيمكن التعبير عن

المعارضة المستترة في ظل نظام استبدادي بالنكات أو إبداء التبرُّم مع أشخاص تثق بهم، هذه الاتصالات المبنية على الثقة تتوسع لاحقًا لتصبح شبكات سرية قادرة على التمدد أكثر، ويصبح من الممكن إقامة أو السيطرة على جمعيات غير سياسية تبدو غير مؤذية (دوائر أدبية أو ثقافية، نوادي الهوايات، المجموعات الكنسية، الكشافة)، وتحويلها إلى مجالات يمكن للمعارضة أن تنمو فيها، ويمكن لهذه أن تكون ذات هدف مزدوج (رسميًّا تخدم أحد الأهداف بينما تتبع هدفًا آخر في الواقع)، أو أن تكون مجالات تتمتع بحماية مؤسسية معينة، مثل الكنائس أو بعض الجمعيات.

من تلك الجمعيات والشبكات ينبثق التحدي، ربما على مستوى منخفض، مثل الكتابة على الجدران أو نشر الأعلام، أو استخدام المناسبات الرسمية للتعبير عن المشاعر العامة، ومثال ذلك أنه خلال حكم الديكتاتورية في الأوروغواي، كانت الحشود تبدو هادئة خلال ترديد النشيد الوطني في مباريات كرة القدم الدولية إلى أن اقتربوا من لازمة النشيد، عندها تعالت أصواتهم بعبارة (الطغاة يرتجفون) (كراوشو وجاكسون 2010، ص 8–9) (Crawshaw & Jackson 2010, pp. 8–9.)، فالتحدي العلني ينبثق في بعض الأحيان مما يسميه جونستون (أعمال الضرب والهرب)، وما زالت الكتابة على الجدران المثال العالمي الأقل خطرًا، في حين أن استفزازات فرقة الفاسقات النسائية المسماةبـ (بوسي ريوت) في روسيا هي مثال حديث على المخاطر العالية، هذا النمط من التصعيد التدريجي والبناء على (عمل بنَّاء) تأسيسي، والأعمال متدنية الخطر، وشبكات العمل المغمورة، واضح في حالتي التشيلي وكوسوفو.

التشيلي

مدة مخاض الاحتجاجات في تشيلي بينوشيه موثقة بشكل جيد حتى الآن، رغم أن ذلك ليس في أدبيات اللاعنف، وقد بدأ حكم بينوشيه بعهد من الإرهاب حاول فيه النظام العسكري اجتثاث المعارضة، ليقتل في نهاية الأمر أكثر من ثلاثة آلاف معارض، مات بعضهم علنًا

وأصبحوا شعارات، مثل المغني فيكتور جارا، واختفى الكثيرون ببساطة، وبعض المعارضين الآخرين حاولوا مساعدة بعضهم على النجاة، في حين بدأت قلة منهم في توثيق انتهاكات حقوق الإنسان والاتصال بشبكات حقوق الإنسان الدولية، وقد رعت الكنيسة (البرامج الإنسانية) ووفرت بعض التغطية - وموَّلت في ما بعد- لتطوير الناشطين مشروعات تعزز الدعم والتضامن المتبادل، فبدأت تلك البرامج بتقديم الاحتياجات المادية،وبوجه خاص لأسر المختفين أو الناس الذين طُردوا من وظائفهم، وتراوحت بين المطابخ، وحدائق المجتمع، والتعاونيات الغذائية، ومشاريع توليد الدخل مثل المغاسل التعاونية (فرولنج 1992) (Fruhling 1992).

الصندوق 2.4 وضع الأسس: حملات غاندي في (العمل البنَّاء)

ربما كانت (سوء حسابات الهيمالايا) أكثر التجارب التي عاشها غاندي إيلاما، والتي أقنعته بأن يعطي الأولوية للعمل البنَّاء، ففي العام 1919 دعا غاندي إلى حملة في عموم الهند ضد التشريعات القمعية البريطانية (قانون رولات)، الذي تطور إلى أعمال عنف من جانب المحتجين - بشكل عفوي ومنظم- وأعمال انتقام بريطانية، ورغم نجاحات غاندي المحلية سابقًا وتحضيراته المؤلمة، لم يكن هناك لا البنية التحتية التنظيمية ولا انضباط اللاعنف الضروري للقيام بعصيان مدني يشمل الهند كلها، حسب ما قال بوب أفري: «كان رد غاندي الرئيس على كارثة رولات استنباط طريقة جديدة لحشد المدنيين على نطاق واسع، والتي قصَّرت كثيرًا عن أن تشكل عصيانًا مدنيًّا وأي طريقة أخرى من المقاومة المدنية، وكان ذلك بداية برنامج مُنسَّق من العمل البنَّاء» (2002، ص. 133).

في البداية كان لهذا العمل البنَّاء ثلاثة مواضيع؛ (سواديشي؛ الإنتاج المنزلي)، وتعزيز الانسجام المجتمعي (الهندوسي- المسلم)، وإلغاء (نبذ المنبوذين) وغير ذلك من الشرور الاجتماعية، وهي أمور امتدت على مدى حياة غاندي، وبعد مماته أيضًا، وإن بعض المعلقين يطرحون هذا على أنه تعبير (العيش الصحيح) الذي يطمح إلى البدء (ببناء نظام اجتماعي جديد ضمن إطار النظام القديم)، ومع ذلك فإنه يوفي لغاندي بتشكيلة من الوظائف الإستراتيجية المباشرة، والعمل البنَّاء قد يغرس الصبر والانضباط لخوض النضال المقبل، وقد يغذي الوحدة بين الفوارق الدينية، والطائفية، والطبقية، ويربط النخبة في المدن مع الغالبية العظمى من السكان الذين يعيشون في القرى، وفي بناء الحركة وقوتها التنظيمية، فسوف يكون في وسعها معالجة قضية الحجم تحديدا؛ «إذا كان من المستحيل الاعتماد على

زعماء الساتياجراها غير الخبيرين في إطلاق حملة المقاومة المدنية عبر القارة الهندية، فما كان في وسع [غاندي] فعله بقدر أقل بكثير من المخاطر هو إدخال الأمة في حملات العمل البنَّاء» (أوفري 2002، ص 134) (Overy 2002, p. 134).

بدأت أول دائرة للخياطة أوائل العام 1975، أربع عشرة امرأة ممن اعتقل أحباؤهن أو اختفوا بدأْنَ في تحويل الخِرَقِ المعاد تدويرها إلى بُسُطٍ لتزيين الجدران، مُعبِّرات عن تجربة حياتهن في ظل الديكتاتورية في مخطوطاتهن[2]، بعد ذلك سهلت اتصالات الكنيسة تهريبها خارج البلد لبيعها لحركة التضامن الدولية، كمصدر دخل لعاملات الحياكة ووسيلة تثقيف سياسي دوليًّا، وتم تشكيل المزيد من المجموعات في سانتياجو وأماكن أخرى أبعد، مع شبكة أقوى مكشوفة من الدعم المتبادل تحت رعاية كنيسة فيكاريا دي سوليداريداد الكاثوليكية التي اتخذت هيكلًا تنظيميًّا خاصًّا بها، أما عاملات الحياكة فقمن بتشكيل (جمعية أقارب المعتقلين والمختفين)، ونظمن أول مظاهرة احتجاج علنية، مثل الصيام أو التقييد بالسلاسل والمطالبة بمعلومات عن المختفين، فاعتقل العديد منهن في مناسبات عديدة بسبب إلحاحهن، ومن آلام عاملات الحياكة نمت صيغة قوية من الاتصالات، وكان طبيعيًّا جدًّا أن ينمو من نوع من الإبداع أنواع عديدة (موسيقى، وأغاني، ورقصات).

مرت سنوات عديدة قبل أن تحدث مظاهرات جماهيرية حاشدة (أيام الاعتراض) التي كان هدفها إظهار أن الاحتجاجات الجماهيرية (غير البطولية) أمر ممكن (مارتينيز 1992) (Martinez 1992)، وكانت الأولى تجربة حادة في مجتمع لم يكن قد شهد احتجاجات جماهيرية منذ عقود، إضافة إلى «أنشطة غير عنيفة مثل قرع أواني الطبخ والمقالي وضربها في ساعة معينة من النهار، وإطلاق أبواق السيارات، ومقاطعة الأسواق والمتاجر، وعدم إرسال الأطفال إلى المدارس، وقيام القادة السياسيين والاجتماعيين بعقد لقاءات عامة غير مرخص لها في الساحات العامة بوصفه عملًا يرمز للمعارضة، ومارس عمال المصانع سياسة التباطؤ في العمل» (أرياجادا 1988، ص 56) (Arriagada 1988, p. 56)، وتكررت (أيام الاعتراض) أربع مرات في عام 1983، لكن مع زيادة قمع النظام، بدأت التظاهرات نفسها تفقد الانضباط، وبحلول عام 1984 أصبح العنف روتينيًّا، ورغم ذلك نجحت المظاهرات في

إظهار ما كان ممكنًا، مولدة نوعًا من تناقص الخوف، وزيادة جسارة الصحافة وحريتها، المهم ثمة عنصران لنجاح (أيام الاعتراض) نبعا مباشرة من بناء شبكات العمل من خلال البرامج الاجتماعية؛ أولًا : انتشرت أيام الاعتراض من قاعدتها الأولى المتمثلة في الطبقة المتوسطة إلى الأحياء الفقيرة نتيجة لتلك الشبكات (هانيوس 2009) (Huneeus 2009)، ثانيًا: كانت مبدعة بشكل خاص في بعض الأحياء الفقيرة، حيث أغلقت المجموعات الطرقات لتعلن عن (مناطق محررة) لمسارح الشارع، وعروض الموسيقى وغيرها (ألياجا روهاس، 2012، ص 23) (Aliaga Rojas, 2012, p. 23).

وخلال أيام الاعتراض انبثق طراز جديد من أعمال اللاعنف (الخاطفة) ضم حائكات السجاد، وبدأت (الحركة ضد التعذيب) بشبكة من المسيحيين المتطرفين في أيلول/ سبتمبر 1983، وفي أواخر ذلك العام حملت اسم سيباستيان أسيفيدو تكريمًا لعامل انتحر علنًا خلال مطالبته بمعرفة مصير ابنه وابنته، ولذلك كانت (الحركة ضد التعذيب/ سيباستيان أسيفيدو) ائتلافًا اعتمد على سجناء سابقين، وحائكات سجاد، وأفراد من عائلات المعتقلين والمختفين، والمسيحيين المتطرفين، وغيرهم، ورغم أنها كانت مفتوحة للجميع، فقد كان هدفها (اختبار إمكانات اللاعنف) للقيام بحملة ضد التعذيب (فيدال 2002، ص 89) (Vidal 2002, p. 89)، لذلك اتبعت بعض الإرشادات البسيطة للعمل، هي: لا اعتداء بالقول أو الفعل ضد الشرطة، لا مقاومة للاعتقال بل محاولة مرافقة من يتم اعتقالهم، عدم الهروب من الشرطة بل البقاء في المكان لحين انتهاء الفعالية.

لم يستغرق معظم الأعمال سوى بضع دقائق، جرى معظمها في أماكن تورطت بالتعذيب- الأول والأكثر تكرارًا قيادة وكالة المخابرات (مركز المخابرات الوطنية)- كان الناشطون يصلون في وقت متفق عليه - قرابة 70 شخصًا للعمل الأول، وأكثر من 100 شخص في العمل التالي، وأكثر من 500 في إحدى المناسبات- وقد ينشرون يافطة كبيرة تحمل شعار ذلك اليوم ويعطلوا حركة السير، ومن العناصر المعيارية الأخرى (الطقس الديني) المتمثل في أغنية (لكي أسميك الحرية - Yo te nombro libertad)، والشجب (خطبة الدعوة

والاستجابة المتعلقة بموقع الاحتجاج في ذلك اليوم)، وحين تصل الشرطة لتفريق التظاهرة فغالبًا ما يبقى اثنان من الناشطين ليتم اعتقالهم، كي يثبتوا في قيود الشرطة (ووسائل الإعلام الرسمية) بأن العمل قد تم بالفعل، وكان يرافق كل عمل رسالة مفتوحة إلى رئيس المؤسسة المستهدفة وبيان صحفي.

وخلال ست سنوات ونصف من وجود (الحركة ضد التعذيب/ سيباستيان أسيفيدو) تم تنظيم (178) فعالية في سانتياجو دي تشيلي، وفي الوقت نفسه تبنَّت جماعات موازية في مدن أخرى الصيغة نفسها للقيام بأعمال مماثلة؛ بالتصعيد التدريجي من النصوص السرية لحائكات السجاد إلى التظاهر على نطاق ضيق ثم أيام من الاحتجاجات تعكس الانطلاق من المعارضة السرية إلى التحدي السافر المذكور أعلاه، الذي يبين كيف وضع (العمل البنّاء) قليل المخاطر والأقل ظهورًا الأسس التي جعلت الحشد فيما بعد ممكنًا.

كوسوفو[3]

شاركت كوسوفو البالغ عدد سكانها ما يقرُبُ من مليوني شخص(90 % منهم ألبان) على مدى (15) عامًا في المؤسسات الفدرالية اليوغسلافية بوصفها عضوًا يتمتع بحقوق متساوية، وفي العام 1989 ألغت صربيا بشكل غير دستوري استقلالية الإقليم، وتبنَّت برامج (لصربنة) كوسوفو، ولم تكن تلك البرامج قد وصلت بعد إلى مرحلة (التطهير العرقي) العسكري الذي جاء مع الحرب وتحديدًا في العام 1999، لكن أهالي كوسوفو واجهوا مضايقات وحشية من الشرطة، وطردًا جماعيًّا من العمل، وبرنامجًا تشريعيًّا يعود لأيام التمييز العنصري المنهجي ضد الألبان والامتيازات الصربية.

حين زرت كوسوفو Kosovars لأول مرة في شتاء العام 1991– 1992، كان ألبان كوسوفو فخورين بحركتهم اللاعنيفة، وكانت لديهم هوية جديدة – بوصفهم الناس الذين رفضوا الرد على الأذى بمثله– حين حاولت القوات الصربية إثارة العنف، وبدلًا من الصورة النمطية المتخلفة التي كانت وسائل الإعلام الصربية تحاول إظهارهم فيها، فقد كانوا أوروبيين

عصريين، يمارسون التسامح الديني ويلتزمون باجتثاث بعض سمات مجتمعهم، مثل الثأر وأمية المرأة، ورغم تزايد أعداد المطرودين من عملهم، فقد أظهروا أن في وسعهم تنظيم أسواقهم الاقتصادية وأنهم يستحقون تقرير المصير.

كانت كوسوفو تمرُّ بمرحلة بناء الوحدة وإظهار الإرادة الشعبية، تعاون فيها حزب جديد كبير (الرابطة الديموقراطية لكوسوفو) مع الأحزاب التي شُكِّلت حديثًا في اللجنة التنسيقية للأحزاب السياسية كي تقرر بالإجماع خطوات النضال التالية، وقع معظم البالغين على التماس (من أجل الديموقراطية، وضد العنف)، تقدَّموا به إلى الأمم المتحدة في العام 1990، وفي أيلول/ سبتمبر من العام 1991 كانوا قد نظموا استفتاءً غير رسمي حول تقرير المصير شارك فيه (87 %) من الناخبين، وطوال ذلك العام كان المعلمون يعملون من دون رواتب، مستخدمين المنهاج المعتمد خلال مدة الحكم الذاتي لكنه بات محظورًا في ذلك الحين، وفي أيلول أُخرِجَ المعلمون والطلاب من المدارس، ورابطت الشرطة بشكل دائم على أبواب المدارس، وفرَّقت بالعنف أولياء أمور الطلاب المحتجين.

ليس في وسع أحد تفسير كيف بدأ اللاعنف،كانت الرابطة الديموقراطية لكوسوفو التي تشكلت في كانون الأول/ ديسمبر من العام 1989، متشككة بشأن اللاعنف في البداية؛ فقد تمحور تفكير مؤسسيها حول القيام بانتفاضة مسلحة، مع ذلك كانت هناك حجج مؤيدة للاعنف يمكن إيجادها في النجاح الأخير (للثورات القرمزية) في الدول الشيوعية، ومن الدعوة إلى اللاعنف من سجناء سياسيين قضوا فترات طويلة في السجن، وربما الأهم من كل ذلك تنامي التصور بأن ميلوسيفيتش يهدف إلى إثارة الحرب، لاحظ المفكر الكوسوفي الألباني شكيلزن ماليكي أن (اللاعنف فرض نفسه) ثم أصبح علامة تعريف (ماليكي 1998، ص 101) (Maliqi 1998, p. 101).

خلال المدة التي تلت كانون الثاني/ يناير من العام 1992، بدأ ألبان كوسوفو في إدارة نظام مدارس مواز، من الصفوف الابتدائية حتى الجامعة، مع ما يقرب من (300000) طالب و(20000) مدرس، كان ذلك بمثابة سفينة القيادة للإعلان ذاتيًّا عن (جمهورية كوسوفو)

المتلقي الرئيس للأموال التي جمعها ما يقرب من (1000 جامع ضرائب) متطوع (من جامعي الضرائب الحكوميين المعزولين)، كما أسست (الرابطة الديموقراطية لكوسوفو) حكومة في المنفى جامعة المزيد من (الضرائب) من المغتربين ومساهمة في الدعاية، وافتتحت شبكة إنسانية هي (جمعية الأم تريزا) أول عيادة صحية لها، مقدمة العلاج المجاني للناس من مختلف الجماعات العرقية، أدارها وعمل فيها أطباء سرَّحتهم السلطات الصربية من عملهم، وفي نهاية العام 1997 كان لديهم شبكة من (91) عيادة طبية، تتضمن وحدة للأمراض النسائية، و(7000) متطوع يوزعون الدعم الإنساني، وكان لهذه الأنشطة البنَّاءة دور حيوي في الحفاظ على المجتمع المحلي الألباني وطريقة العيش في كوسوفو، وبوجه خاص مع تراجع أعداد الألبان العاملين، فمن أصل (164,210) ألبان عاملين في العام 1990، خسر (146,025) أو (83 %) منهم وظائفهم، وتم توثيق كل هذا بدأب من قبل الاتحاد المستقل لنقابات العمال، الذي تشكل خلال العام 1990، وفي أيار/ مايو من العام 1992 جرت انتخابات موازية لاختيار الرئيس وأعضاء البرلمان، وقد شارك فيها (900000) ناخب وناخبة.

تجاوزت تلك المرحلة من النضال اللاعنيف (1990– 1993) كل التوقعات، فقد وحَّدت المجتمع الألباني (مسلمين ومسيحيين وتقليديين وعصريين)، وحمَّلت بلغراد مسؤولية العنف، وأسَّست قاعدة للتنظيم الذاتي، وبدا أن الشعب موحد، ومصمم، ومنظم، يرفض استفزازات الشرطة الصربية ورديفها من المنظمات شبه العسكرية ومحاولتهم دفعه إلى العنف، وفي كل مرة يقع فيها حادث عنف، مثل غارة للشرطة على إحدى القرى، كان ناشطون خبراء – سواء من الرابطة الديموقراطية لكوسوفو أو من مجلس الدفاع عن حقوق الإنسان والحريات في كوسوفو– يصلون إلى الموقع ليؤدوا دور الوسيط إذا كانت الشرطة ما تزال هناك، أو يحاولون تهدئة الموقع وتوثيق ما حدث، ويشرحون أيضًا بأن من الضروري مقاومة هذه المحاولة لإثارة العنف، وقد ترأس إبراهيم روجوفا من الرابطة الديموقراطية لكوسوفو دولة بدائية، لديها دوائر للتعليم، والصحة، والضرائب، والمعلومات، وبدا أن الشعب كله

متمسك بدعم الكفاح اللاعنيف، أما المتشككون فلم يكن أمامهم سوى الانضمام للركب وبذل ما في وسعهم، أو الهجرة.

رغم خسارة كوسوفو لحلفائها التقليديين ضد صربيا، بحصول كل من سلوفينيا وكرواتيا على الاستقلال، وموافقتهما على عدم التدخل في الشؤون الداخلية ليوغوسلافيا الفدرالية، فقد عمدت إلى جمع حلفاء دوليين جدد من خلال حشد المغتربين والمشاركة في الشبكات العابرة للحدود، وإذا كانت ألبانيا الدولة الوحيدة التي تعترف بجمهورية كوسوفو، ففي نهاية العام 1992 كانت هناك مكتسبات دولية واضحة، فقد أقام مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا (التشكيل السابق لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا) بعثة دبلوماسية في كوسوفو وتولى المفاوضات المتعلقة بالتعليم، بينما هددت الولايات المتحدة بعمل عسكري من جانب واحد إذا شنَّت بلغراد حملة جديدة ضد حقوق الإنسان، وهو تهديد كررته إدارة كلينتون في شباط/ فبراير من العام 1993.

وكان التصور العام لدى ألبان كوسوفو هو أنه ليس في وسعهم فعل شيء يذكر للتأثير في الوضع بصربيا، فجرت اتصالات عدةيد مع المعارضة الديموقراطية في صربيا، مع ضآلة الأمل في أن يكون للمعارضة الصربية أي تأثير، وكانت هناك إشارات في أواسط التسعينيات من أن صربيا قد سئمت الحرب، لدرجة أن فئات من النخبة الصربية في بلغراد استقالت بسبب فقدان كوسوفو، رغم عدم استعدادها للمخاطرة سياسيًّا بإعلان ذلك، أما في كوسوفو نفسها فقد تزايدت الشكاوى من خمود الكفاح، وكان هناك شعور واسع بالإحباط؛ لأن اتفاقيات دايتون للعام 1995 (التي أنهت الحرب في البوسنة) لم تقدم أي شيء لكوسوفو.

لم يكن إبراهيم روجوفا الوحيد في تفسير رفضه التعرض للاستفزاز على أنه (عدم ركوب المخاطر)، لكنه واجه انتقادات متزايدة لنهجه (السلبي)، وبوجه خاص لمسألتين؛ إلغاء تعبئة الكوسوفيين الذي يمكن إعادته إلى تاريخ حظر المظاهرات، وداخل كوسوفو تم تفسير هذا الأمر على أنه (استراحة إستراتيجية)، لكنها لم تُرفَع طيلة خمس سنوات، وتسفيه روجوفا الانتخابات البرلمانية الموازية التي جرت في أيار من العام 1992، حين لم

يُدْعَ البرلمان للانعقاد، وقد كانت تلك الانتخابات غير الرسمية تجربة تأهيل، لذلك وبدلًا من تصعيد ذلك الموقف ومواجهة ميلوسيفيتش بمعضلة (اترك هذا البرلمان يعمل أو اكشف عن وحشية الحكم المباشر من بلغراد)، تراجع روجوفا، وكانت الفئة الأكثر تعرضًا للخطر هي الـ (130) برلمانيًّا، الأشخاص الذين نافسوا ليصبحوا ممثلين للشعب، والذين يجب أن يكونوا الأكثر استعدادًا لتحمُّل المخاطر.

رغم أن التوجه السائد في الأنشطة البنَّاءة هو المبالغة في الحذر، ومع أن شبكة الأم تريزا للرعاية الصحية كانت تتسع وتتحسن باستمرار وبدأت في إدخال تمويل دولي، كان نظام التعليم يواجه عقبة تتمثل في ازدحام المرافق، وإحباط المناهج الدراسية التي تجاوزها الزمن، وشكل نزيف المال الذي كان ينفق لاستيراد سلع كان في الإمكان إنتاجها في كوسوفو مشكلة خطيرة أخرى، فخلافًا لمركزية ترويج غاندي للإنتاج المنزلي، أو سياسة (الاقتصاد المنزلي) التي روَّج لها الفلسطينيون على نطاق واسع خلال الانتفاضة الأولى، لم تقم سوى مجموعة صغيرة واحدة (اقتصاد المنزل، بالتعاون مع شبكة نساء الريف) بنشاطات لتوليد الدخل، أما الاقتراحات العملية المختلفة الأخرى فتم ببساطة تجاهلها أو تأخرت إلى أن انقضى أوانها.

كان ينبغي على حركة لا عنف نشطة أن تستكشف على الدوام مجالات العمل بدلًا من ذلك، وبعد الانتخابات الموازية في عام 1992 أصبح المجلس التنسيقي للأحزاب السياسية غير ذي صلة، فقد احتكرت الرابطة الديموقراطية لكوسوفو القيادة، وأصبح روجوفا نفسه أكثر بُعدًا، وصار كل من يسعى (للوحدة) وكأنه يخنق التنوع والمبادرة، وكان للمرأة دور محوري في العمل البنَّاء المتعلق بالتعليم والصحة وشن الحملات بقوة ومبادرة، ومع ذلك لم يبرز سوى اثنتان من خلال الرابطة الديموقراطية لكوسوفو، ولم تكونا جزءًا من دائرة روجوفا الداخلية، وفي الوقت نفسه استبعدت منظمة الشبيبة في الرابطة الديموقراطية لكوسوفو (الحد الأعلى للسن 30 عامًا) من التمثيل في مجلس الحزب الحاكم، وكان ذلك وصفة لتقليص القدرة الإستراتيجية: «زيادة التجانس، وخفض المساءلة أمام الناخبين،

وقمع المعارضة في المناقشات، وتعطيل دوائر التعليم» (جانز 2009، ص19) (Ganz 2009, p. 19).

وفي العام 1997 حدث شيء مختلف؛ إذ تحدى اتحاد طلاب ألبان كوسوفو الحظر المفروض على المظاهرات ونظَّم مسيرة طالبت (باستعادة) مباني الجامعة، فاستدعوا لمقابلة روجوفا، لكنهم رفضوا بأدب وإصرار تغيير خطتهم، قائلين إنهم - بوصفهم مواطنين كوسوفيين- يحترمونه بصفته رئيسهم، لكنهم - بوصفهم طلابًا- يصرون على استعادتهم حقهم الإنساني في التعليم، ودعوا المؤيدين للانضمام إليهم بهدوء في أمسية التنزه المعتادة في شارع بريستينا الرئيس، فكانت الاستجابة عظيمة لدرجة أنها روعت المجتمع الدبلوماسي في بلغراد؛ حيث طلب الوفد الأعلى رتبة ممن زاروا كوسوفو في ذلك الحين- والمكون من 12 سفيرًا- من اتحاد طلاب ألبان كوسوفو الكف عن ذلك، مؤكدين من دون قصد منهم قناعة الطلاب بأن الطريق لإثارة انتباه العالم ليس اتباع نصيحة السير بهدوء التي قدمها الدبلوماسيون لروجوفا، بل بتحريك الأمور.

وبالنسبة إلى افتتاح العام الجامعي في 1 تشرين الأول/ أكتوبر، خطط الطلاب بعناية لمسيرة غير عنيفة إلى مباني الجامعة، وكانت مكونة من 15 طالبًا يرتدون قمصانًا أو سترًا بيضاء، متبعين قانون انضباط غير عنيف مع (30000) مؤيد من جانب الطريق، وحين وصلت المسيرة إلى خط الشرطة توقفت، لكن المشاركين رفضوا أن يتفرقوا، وحين هاجمتهم الشرطة بالهراوات والغاز المسيل للدموع، بقيت الخطوط الأمامية صامدة لأطول مدة ممكنة، فأذهلت شجاعتهم المشاهدين، بما في ذلك الصحافة الدولية والصربية.

وفجأة، أصبح أعضاء اتحاد طلاب ألبان كوسوفو أبطال بلدهم، حتى روجوفا امتدحهم، وغير الدبلوماسيون سياستهم، ودعا بعضهم اتحاد الطلاب إلى إرسال وفود إلى بلدانهم، وفي صربيا برز حلفاء محتملون جدد، وكان هناك بالفعل اتصالات سرية بين اتحاد طلاب ألبان كوسوفو وطلاب بلغراد، أما الآن فقد أصدر طلاب بلغراد إعلانًا يدعم الحق الإنساني في التعليم مع وعد بزيارة برستينا لحضور التظاهرة التالية لاتحاد طلاب ألبان كوسوفو.

لسوء الحظ، فإن إعادة إحياء النضال اللاعنيف حدث متأخرًا جدًّا؛ بحيث لم يمنع الحرب لأن جيش تحرير كوسوفو كان قد تشكل بالفعل، وبعد بضعة أشهر في شباط وآذار 1998، وفي أعقاب مجزرة درينكا، انضم إليه العديد من الطلاب، ولم تشمل تلك المجازر العائلة الممتدة لمؤسس جيش تحرير كوسوفو آدم يشاري وحسب، بل أصابت أُسَرًا غير مسلحة أيضًا، فكانت تتبع سياسة اللاعنف السابقة (أثناء جلسوهم بهدوء في منازلهم من دون سلاح)، وقد أنهت أعمال القتل الوحشية الأمل في أي عمل غير عنيف، رغم استمرار الاحتجاجات المدنية اللاعنيفة كداعم للقتال في أماكن أخرى.

أشار (اللاعنف النشط) الذي مارسه الطلاب إلى إمكانات لم تتحقق، فالتحول الضروري من الدفاع الحذر إلى هجوم مضاد غير عنيف لم يحدث، وكان يمكن لهذا أن يبذر الشك في صفوف من يقومون بالقمع، واستغلال الانقسام داخل صربيا، وتحويل التأييد الشفهي الدولي لحقوق الإنسان إلى إجراء فعال من الدعم.

كان هناك افتراض واسع النطاق في أوساط ألبان كوسوفو في تسعينيَّات القرن الماضي بإمكانية أن يحظى اللاعنف بتأييد دولي أكبر من الكفاح المسلح، وكانت ذلك هو الحال حين هددت الولايات المتحدة بتوجيه ضربات جوية ضد صربيا في 1992- 1993، ومن المؤكد أن لا عنف الكوسوفيين كان حيويًّا في إقناع الهيئات الدولية بشجب انتهاكات حقوق الإنسان الصربية، إلا أن ما بات واضحًا- وما بيَّنته احتجاجات الطلاب- هو هدف الغرب في إبقاء كوسوفو ساكنة، من دون أي نية لدعم شعب مضطهد في كفاح غير عنيف، وقد تزامنت تهديدات الولايات المتحدة في 1992- 1993 مع فرض كوسوفو حظرًا على الاحتجاجات، وخلال السنوات الخمسة التالية التي لم تمارس فيها كوسوفو أي اعتراضات، وبدلًا من مكافأة الكوسوفيين لصمودهم ورفضهم أن يتم استفزازهم، لم تقدم الولايات المتحدة أو أي من حلفائها دعمًا لمؤسسات كوسوفو الموازية. بل إن الدبلوماسيين الغربيين دأبوا حتى العام 1998 على دعوة قادة كوسوفو إلى التخلي عن مطلب تقرير المصير وقبول الحكم الذاتي في ظل صربيا، وبخلاف ذلك ما أن بدأت الحرب في 1998، حتى تحولوا من

شجب جيش تحرير كوسوفو بوصفه إرهابيًّا إلى معاملته على أنه حليف، وفجأة في العام 1999 وضع الاستقلال على الأجندة الدولية، بغض النظر عن الشكوك التي أحاطت بوجود التوجهات الإجرامية داخل جيش تحرير كوسوفو، فقد رأى الناتو أن لا بديل أمامه إلا أن يجعل منه حليفًا على الأرض في الحرب ضد صربيا (جاو 2003، الصفحات من 260- 264) (Gow 2003, pp. 260–4).

التعامل مع العنف

أحد مفاتيح النجاح في الكفاح غير العنيف هو التعامل مع استعداد الخصم لاستخدام العنف، يجادل الكُتَّاب من أمثال شارب بأن عنف النظام ضد حركة لا عنف عازمة على الصمود يمكن جعله يرتد عليه، وهو تأثير يصفه بأنه (جيو- جيتسو سياسي)، والذي دمجه برايان مارتن مؤخرًا في مفهوم (إعطاء نتائج عكسية) (مارتن 2007) (Martin 2007)، وفي الأحداث التي ناقشناها هنا، حدث ذلك بشكل مشهود في مظاهرة اتحاد طلاب كوسوفو عام 1997، في المناسبة الوحيدة التي تعمَّد فيها ناشطو كوسوفو الرد بلطف على العنف الوحشي من قبل المجموعة الرئيسة من أعضاء اتحاد طلاب كوسوفو الذين وقفوا جنبًا إلى جنب مع أناس يثقون بهم، وحسبوا أن عنف الشرطة ستكون له نتائج عكسية على النظام - كما حدث بالفعل-، ولكن مشهد الصور اللاحقة للعنف الذي مارسته الشرطة، وقمصان الطلاب البيضاء المُضرَّجة بالدم، لم يجلب إدانة دولية وحسب، بل إن بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الصربية- الهيئة الصربية الأكثر تصميمًا على الحفاظ على كل ما هو صربي في كوسوفو- أدان لأول مرة وحشية الشرطة.

استراتيجية الكفاح اللاعنيف قد تتضمن مثل هذه المواجهات لتضفي نوعًا من التهويل على ظلم استمر طويلًا، إلا أن معظم أعمال اللاعنف لا تشتمل على رد لطيف على العنف، بل تسعى إلى إيجاد طرق لكبح عنف النظام وخفض تأثيره في الحركة، وهذا قد يستتبع تبني أساليب تحدٍّ من عنف النظام، وتسجيل عنف النظام، ودعم من يتعرضون لذلك العنف، أو

إضعاف حلقة القمع، وفي الوقت نفسه ينبغي على الحركة أن تعزز قدرتها على الحفاظ على الانضباط وتبني أنماط عمل تتغلب على الخوف.

إن تبني الأساليب بشكل برغماتي للحد من عنف الشرطة له أبعاد عديدة في الانتقال من الأعمال (غير الواضحة) إلى التحدي العلني، ومن المعتاد البحث عن فضاءات آمنة نسبيًّا وسط الحشود خلال حدث رياضي، أو في جنازة جماعية، أو الاحتماء بمكان (محمي) نسبيًّا لمؤسسة مثل الكنيسة، والواقع أن الاحتجاجات الأولى في تشيلي جرت على أراضي الكنيسة، توقيت العمل- سواء ما يتعلق بالمكان أو المدة التي سيستغرقها- يمكن أن يؤثر أيضًا في درجة عنف الشرطة، فقد خططت (الحركة ضد التعذيب/ سيباستيان أسيفيدو) أعمالها الخاطفة في أوقات يمكن لأكبر عدد من الناس مشاهدتها، وخططت لأن يستمر كل عمل بضع دقائق، وهو عمل ما كان له أن يقضي على عنف الشرطة لتفريق المتظاهرين، بل على الأقل يجعله بلا مُسوِّغ وغير ضروري.

يمكن لتوثيق العنف أن يثير غضبًا أخلاقيًّا يرتد على الخصم ويكلفه الدعم الشعبي وفقدان الشرعية مع الحلفاء والانشقاق عن النظام، وعملية التوثيق ذاتها يمكن أن تحول محاولات التخويف إلى سلاح ضد النظام ومصدر للقوة، فدعم الأشخاص المعرضين للهجوم في التشيلي اشتمل على تطوير ردود علاجية على التعذيب، وكان مختلفًا عن المعالجة التقليدية (للصدمة)، وشمل أيضًا دعم الأشخاص الذين اعتقل أحباؤهم أو اختفوا، وجزء من إضعاف سلسلة القمع هو دفع عملاء النظام إلى التساؤل حول جدوى القمع والبحث عن حلفاء قادرين على تثبيط همتهم.

الخلاصة: الحركات التي تُعلم

لا تولد الحركات مكتملة الصفات؛ فهي تنمو وتتكيف حسب بيئتها (ومتغيراتها)، وفي هذا الفصل شاهدنا الحركات تمرُّ خلال مراحل مختلفة، من مرحلة الحمل إلى الانبثاق، والنمو، والقمع، والإحباط، كما تمرُّ الأنظمة أيضًا خلال مراحل، من هيمنة الرعب إلى

محاولات استعادة الشرعية والقبول، فتلك السياقات تفرض مطالب متميزة على الحركات، تستدعي إمكانية التكيف والتفاعل الدائم بين الخبرة على الأرض والخيارات الإستراتيجية التي تقوم بها الجماعات التي تتشكل منها الحركة.

شعار (الاتحاد قوة) كثيرًا ما تردد في أدبيات الأعمال المتعلقة باللاعنف، فمن المؤكد أن الوحدة يمكن أن تكون مصدر قوة، لكن الحركات تواجه أيضًا مسألة كيف تنظم نفسها بطريقة منفتحة على التجديد والتجربة، فمن جهة يكمن خطر (التشظي) الذي يقول به ويندي بيرلمان (2012) Wendy Pearlman (2012) – مستشهدًا بشكل رئيس بفلسطين– بأنه قد يجعل من المستحيل اتباع سياسة متماسكة من اللاعنف (انظر أيضًا نورمان 2010) (see also Norman 2010)، ويكمن في الجهة الأخرى في تحذير كوسوفو، حيث ولدت الرابطة الديموقراطية لكوسوفو ما دعته (اليد الميتة للوحدة) المتمثلة في التطابق وتهميش أصحاب المبادرات– سواء من كانوا يتقدمون باعتراضات، أو حوار، أو نشاط بنَّاء– وأجلت قضايا تتعلق بالتنظيم المستقبلي للمجتمع، ويقترح بيرلمان تعبير (التلاحم) الذي يفسح المجال بشكل أفضل للتحفيز الذاتي والتضامن بين مختلف طبقات قوى المجتمع.

كما شاهدنا، فإن عملية التماسك يمكن أن تبدأ حين يكون هناك معارضة (مغمورة) أو (غير متطفلة)، كما كان الوضع مع حائكات السجاد في تشيلي، بالنسبة لغاندي كان العمل البنَّاء وسيلة مركزية للتضامن؛ تعبيرًا عن هدف مشترك، طريقة جماعية لمعالجة المشكلات اليومية، مؤشرًا للحكم الذاتي المستقبلي، وقد تحول إلى هذا الاتجاه لأنه صيغة من التطور التنظيمي، حين وجد أن إصدار إرشادات حول اللاعنف لم يكن كافيًا لإقامة ضوابط غير عنيفة للاحتجاجات، وكان هناك معنى للتغيير الثقافي أيضًا مع مبادرات اللاعنف العملية والبنَّاءة التي كانت تتوسع باستمرار لتحتضن جوانب جديدة، وهي عملية شهدناها أيضًا في تشيلي وفي السنوات الأولى من حركة اللاعنف في كوسوفو.

لا حائكات السجاد التشيليات ولا (الحركة ضد التعذيب/ سيباستيان أسيفيدو) التي جاءت بعدهن أو طلاب كوسوفو الألبان للعام 1997، كانوا ضمن التيار الرئيس لحركاتهم،

كانوا مجموعات ذات دوافع قوية، فنجحوا في تسخير السخط العاطفي والأخلاقي وتحويله إلى عمل مُنسَّق، من بيئاتهم الخاصة أحدثوا تأثيرًا مهمًّا في وضعهم، بتحفيز الإبداع وإزالة حاجز الخوف اكتشفوا إمكانات لم تكن مُكتشَفة، ونقاط نفوذ جديدة أصبحت خبرات تعليم ليس للمشاركين وحسب، بل لمجموعة أكبر من المواطنين والمؤيدين.

أسئلة للمناقشة

1. كيف يمكن لحركة اللاعنف أن توازن بين الوحدة والتباين؟
2. يناقش الفصل أهمية (العمل البنَّاء) ووضع الأسس لحركة دائمة، فكيف يقرر القادة والمنظمون متى ينتقلون من مستوى أدنى من الاستعدادات إلى أساليب فيها مواجهة أكثر؟ وما نوع الضغوط التي قد يواجهونها؟
3. شملت (الحركة ضد التعذيب/ سيباستيان أسيفيدو) مجموعات ماركسية كانت تفضل الكفاح المسلح، كيف كنت ستنظر إلى مشاركتهم؟
4. هناك ادعاء دارج بأن اللاعنف يساعد على اجتذاب الدعم الدولي، ومع ذلك فإن دول حلف الناتو لم تكن مستعدة لمناقشة استقلال كوسوفو إلا بعد أن نشبت الحرب، ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إليك؟

اقتراحات لمزيد من القراءة والبحث

- بوروز، روبرت (1996) Burrowes, Robert (1996) إستراتيجية الدفاع اللاعنيف: نهج غاندي الباني، نيويورك Burrowes, Robert (1996): مطبعة جامعة ولاية نيويورك.
- كارتر، أبريل (2012) Carter, April (2012) قوة الشعب والتغيير السياسي: قضايا ومفاهيم رئيسة، أبمجدون: روتليدج Abingdon: Routledge.
- جانز، مارشال (2009) Ganz, Marshall (2009) لماذا يفوز ديفيد أحيانًا: القيادة، والتنظيم، والإستراتيجية في حركة عمال مزارع كاليفورنيا، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد.